

سيرة عنترة

(ملحمة شعبية عالمية)

د. عبد الحميد يونس

سيرة عنترة

(ملحمة شعبية عالمية)

د. عبد ا ميد يونس

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

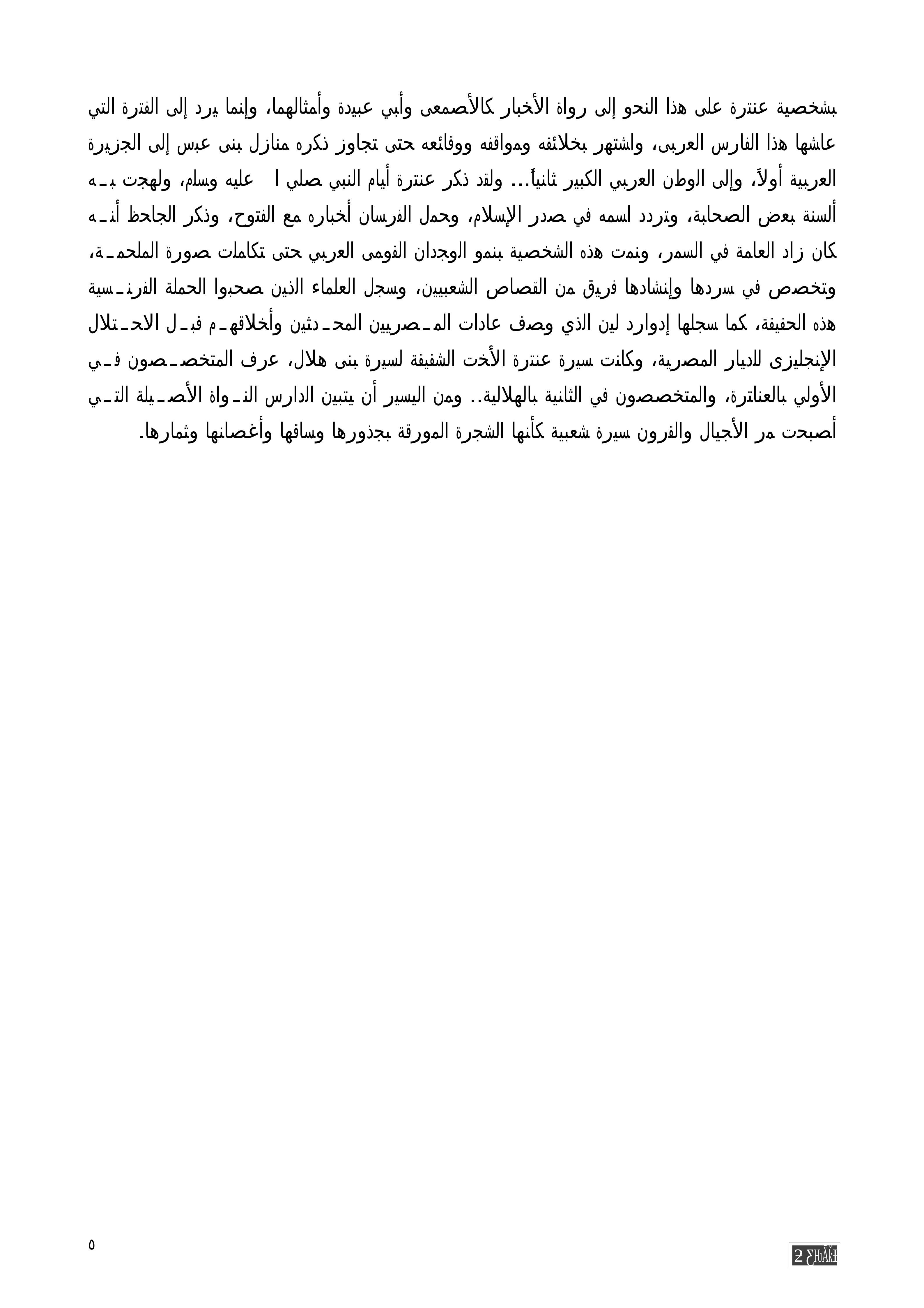
الفهرس

سيرة عنترة (ملحمة شعبية عالمية)

تعد "سيرة عنترة" العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية، فما من مصنف ينتظم هذه الروائع، يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التي تؤكد حقيقتين بارزتين، هما: أن الآداب الشعبية ليست كلها محلية محصورة في بيئة جغرافية محدودة أو وطن معروف، وأن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف الأجناس والأديان والألوان، على الرغم من اختلاف العصور وتباعد الديار. والباحثون إذا تجاوزوا ما في الملاحم الشعبية من وجوه التماثل، فإنهم يسجلون، وبخاصة عن سيرة عنترة، أنها كانت من الروائع التي احتفلت بها أوروبا في القرن الثامن عشر، وربما قبل ذلك، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية في الدراسات الأدبية بصفة عامة، وفي دراسات الأدب المقارن بصفة خاصة إبان القرن التاسع عشر، ولم يقل أحد من الدارسين فيها الكلمة الفاصلة إلى الآن، فما أكثر ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التي تحتاج إلى تحقيق تاريخى، وتحليل أدبى. وإذا كنا نلمس منذ البداية تشابهاً أو تطابقاً بين بعض حلقات هذه السيرة، وبين ملحمة السيد الإسبانية، وأغنية الرولان الفرنسية، فإننا لا نستطيع أن نغفل إعجاب ناقد أدبي عظيم مثل "هيبوليت تين" بهذه السيرة العربية، ووضعها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيكفريد، ورولان، والسيد، ورستم، وأوديسيوس، وأخيل. كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة، ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطل العربي عنترة، أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعة.

ولم يكن انتخاب الشعب العربي لهذا البطل الجاهلي بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية، ومن الشعوب الأخرى التي تسللت إلى موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى. ومن الواضح أن الشعب العربي إنما اعتصم بموطنه الأصلى، وهو الجزيرة العربية، والتفت إلى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية، عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعاً عن الحمى والنفس، بعد انحسار موجة الفتوح الإسلامية، واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم في أجزاء من الوطن العربي وإبان ذلك الصراع الدموى الطويل الذي عرف بالحروب الصليبية... من أجل هذا كله انتخب الشعب العربي مثالاً بارزاً للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة بن شداد العبسى الملقب بأبي الفوارس، وهو الذي جمع بين الفتوة والتبريز في الشعر، والذي أسهم في أيام العرب المشهورة، والذي كان من أصحاب المعلقات.

ولقد شغل الباحثون أنفسهم، ولا يزالون، بمحاولات الحكم على هذه السيرة الشعبية من ناحية النوع الأدبي، ومن ناحية البناء الفنى، ومن ناحية التأريخ، وقلما عنوا بالباعث الأصيل الذي أثمرها. وهى كغيرها من نصوص الأدب الشعبي، تكاملت في بيئات عربية مختلفة، ولم تبلغ غايتها من الكمال إلا بعد أن استنفدت الأجيال والقرون في النماء والتطور والتراكم، ولهذه الحقيقة دلالتها الكبيرة، وهى: أن الوجدان القومى تشبث بالمثال الذي انتخبه ورآه ملائماً لما يريد أن يعبر عنه، فلم يحتفظ به حقبة تقصر أو تطول، ولم يجعله موضوع غنائيه في بيئة واحدة مهما كانت، وإنما ظل يعبر بوساطته عن هذا الوجدان بأبعاده التاريخية، وبما تصوره من أمجاده، وبما أراد أن يرسب من معارفه، وبما اعتصم به من قيم يفرض على أفراده جميعاً التصعيد إليها في السمت، وفي الفكر وفي التعبير وفي السلوك جميعاً، ولا يرد اهتمام الشعب العربي



بشخصية عنترة على هذا النحو إلى رواة الأخبار كالأصمعى وأبي عبيدة وأمثالهما، وإنما يرد إلى الفترة التي عاشها هذا الفارس العربى، واشتهر بخلائقه ومواقفه ووقائعه حتى تجاوز ذكره منازل بنى عبس إلى الجزيرة العربية أولاً، وإلى الوطن العربي الكبير ثانياً... ولقد ذكر عنترة أيام النبي صلي ا عليه وسلم، ولهجت بـه ألسنة بعض الصحابة، وتردد اسمه في صدر الإسلام، وحمل الفرسان أخباره مع الفتوح، وذكر الجاحظ أنـه كان زاد العامة في السمر، ونمت هذه الشخصية بنمو الوجدان القومى العربي حتى تكاملت صورة الملحمـة، وتخصص في سردها وإنشادها فريق من القصاص الشعبيين، وسجل العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنـسية هذه الحقيقة، كما سجلها إدوارد لين الذي وصف عادات المـصريين المحـدثين وأخلاقهـم قبـل الاحـتلال الإنجليزى للديار المصرية، وكانت سيرة عنترة الأخت الشقيقة لسيرة بنى هلال، عرف المتخصـصون فـي الأولي بالعناترة، والمتخصصون في الثانية بالهلالية.. ومن اليسير أن يتبين الدارس النـواة الأصـيلة التـي أصبحت مر الأجيال والقرون سيرة شعبية كأنها الشجرة المورقة بجذورها وساقها وأغصانها وثمارها.



أبو الفوارس في الجاهلية

وهناك سؤال ينبغى على كل باحث أن يجيب عنه قبل أن يعرض للنواة الأصيلة التي تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية، وهذا السؤال هو: لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصيته، وأحداث سيرته في ذاكرة الشعب العربي دهراً طويلاً، ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية، وفيهم من كان أعرق نسباً، وأوفر مالاً، وأقوى شكيمة؟..

لقد ذكر الشعب العربي الزير سالم فترة من الزمن، ولهج بسيف بن ذى يزن فترات، ولم يكن لهما مع ذلك نفس المكانة التي لا تزال لعنترة في وجدان الشعب العربي إلى الآن. وتكمن الإجابة في أن محور سيرة عنترة ابن شداد العبسى يدور حول الحرية التي افتقدها المواطن العربي عندما التفت إلى الجزيرة في مرحلة نقاء الجنس، وإذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس في عبارة واحدة، فإننا نستطيع أن نقول: إنها كانت صراعاً أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حر في مجتمع حر، يضاف إلى ذلك أنه كان شاعراً، فالحديث في سيرته واقع وتعبير معاً، ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التي يمكن أن تكون حافزاً شخصياً لكل مواطن عربى، وقومياً لكل مجتمع عربى. ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل بملحمته جزءاً لا يتجزء من التراث الشعبي الحى. وإذا كان من العسير على المؤرخ أن يحقق سيرة عنترة من تلك الأخبار والروايات المتناثرة، فإن من السهل على دارس الأدب الشعبي أن يتبين النموذج الأول بما يتسم به من تعميم، وملامحه البارزة هى التي استغلها الشعب في ذلك الأثر الأدبي الضخم الذي اتخذ مكانه بين روائع الملاحم العالمية، وهو نموذج الفارس العربي الجاهلى.

ولقد عرفت الأمة العربية الفرس من قديم، ولا يستطيع المؤرخون أن يحددوا على التحقيق الفترة التي دخل فيها هذا العنصر الحى الجزيرة العربية، وكل ما يستطيعون قوله هو أن الفروسية كانت نظاماً له عرفه المكين، وتقاليده الراسخة مما يدل على قدم هذا النظام في الجزيرة، وبديهى أن الفرس كانت شارة السؤدد والشرف والغنى، ولم يكن كل أعرابي يملك فرساً، واعترف المجتمع بمكانتها فصانها، وثقف تربيتها، وحفظ لها أنسابها، وبرز إلى الوجود فن عملي يرتبط بها في الحرب والرحلة، وفي التدرب على الكر والفر وحمل السلاح، والمعجم العربي القديم غنى بالألفاظ الخاصة بالأفراس في مراحل نموها وشياتها وأوصافها ومزاياها، وبكل ما يقترن بها من ثقافة عملية منوعة، وحفلت الحياة تبعاً لمكانتها هذه بالبيئات المتخصصة في تربيتها وتدريبها، كما حفلت بالتناظر حولها كالمنافرة على النسب والأصل والجاه والقوة، واتخذت الفرس موضوعاً من أهم موضوعات المناظرة، فكان الرهان عليها، وكان التسابق بين الأفراس، وكانت الحروب التي اشتجرت بسببها، مثل يوم داحس والغبراء الذي أسهم فيه عنترة بن شداد العبسى.

والفروسية العربية الجاهلية تلخص جميع الفضائل التي ينبغى أن يتحلي بها كل عربي حر، وتجعلها كلمة "المروءة" التي كانت تعنى القدرة على حماية النفس والأهل والجار والضعيف والمال، والتي كانت تعنى إلى جانب هذا كله الاستعلاء على الصغائر والبذل بلا مقابل، وهذه الفضائل لا يمكن أن يتحلي بها ضعيف

البدن والنفس، فالفروسية إذن تعنى الحرية في إطار الفضيلة، كما يريدها المجتمع، وتعنى القوة وما ينبغى لها من قدرة ومن دربه ومن استعلاء. وإذا كانت الفروسية الأوروبية في أخريات القرون الوسطى نظاماً أرستقراطياً حفزت إليه عواطف الحب بانتخاب فتاة تشبه العذراء، كما حفزت إليه العاطفة الدينية بمحاربة الخارجين عليها، فإن الفروسية العربية الجاهلية عرفت الحب العفيف هى الأخرى، وعملت على حماية الوطن والنفس والمال، كما عملت على تحقيق التفوق والامتياز على المجتمعات الأخرى... عرفت الفروسية الأوروبية الحب والدين والحرب، وعرفت الفروسية العربية الجاهلية الحب والحرب فقط، وهذا هو الإطار العام الذي حاول فيه عنترة بن شداد العبسى، بل صارع، من أجل أن يحقق وجوده وتفوقه وامتيازه حتى استحق آخر الأمر أن يلقب بعنترة الفوارس.

وما نريد أن نقع في الدور المنطقى باستخلاص سيرة عنترة وشخصيته من شعره، أو بتحقيق هذا الشعر على أساس من تحقيق الأخبار والروايات والأيام، فإن ذلك لا يجدى هذا البحث شيئاً، وحسبنا أن نسجل فقط ما استقر منذ البداية في الأخبار ودواوين الأدب من أن عنترة لم يولد حراً كغيره من فتيان العرب. فقد كانت أمه أمة حبشية تدعى زبيبة، وولد على شاكلتها أسمر مشقوق الشفة حتى لقب بعنترة الفلحاء، وعلى الرغم من انتسابه إلى شداد بن قراد من عبس، فإنه كان عبداً يحس بعقدة الدونية في مجتمع الأحرار بين إخوته وأبناء عمومته وما أكثرهم. وهذا الإحساس بالمغايرة بينه وبينهم في المعاملة والمكانة، جعله ينفر من ذل الهوان ورتابة العمل وضآلة الشأن. وأدرك أن الفروسية ربما كانت وسيلته الوحيدة إلى الحرية وكانت حظ الأحرار، بل حظ الأشراف، فاحتال بوسائل مختلفة حتى تدرب عليها. ولقد أعانته على بلوغ غايته، بسطة في الجسم، وقوة في العضل، وقدرة على الصبر، ومرونة في الحركة، وليس من شك في أن الإحساس بالمغايرة جعله يلتفت إلى ذاته المفردة أكثر من سواه، ويعمل جهده على حمايتها من الضيم والأذى، فكان سريع البادرة، يرد العدوان، حتى اشتهر أمره بالجلد في العراك، واللدد في الخصومة وليس من شك أيضاً في أنه عأني كثيراً من عوامل الصراع النفسى بين الواقع الذي كان عليه، وبين ما ينبغى أن يحققه لنفسه... وهذه المواجهة للفارق بين الواقع والمثال عملت على تصفية نفسه من الصغائر وحفزته إلى الاستعلاء... لم يكن كغيره من العبدان مستسلماً لوضعه مفلسفاً له، وإنما كان إيجابياً في العمل على تغييره مهما لقى من عنت ومهما وضع في سبيله من عقبة... وكانت السبيل الوحيدة هى أن ينهض بعمل عام يفيد منه المجتمع كله، وكانت فرصته عندما أغار على الحمى مغير، وضعفت إرادة الأحرار عن رده، فتنادوا مشيرين إلى عنترة، وكان الحوار العبقرى بينه وبين أبيه، وهو الحوار الذي لم يظفر بوساطته بالحرية فحسب، وإنما ظفر بتصحيح نسبه أيضاً، فقد "أغار بعض أحياء العرب على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً فتبعهم العبسيون ولحقوهم، فقاتلوهم عما معهم ـ وعنترة يومئذ فيهم ـ فقال له أبوه "كر" فقال: "العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر"، فقال أبوه: "كر وأنت حر... وقاتل عنتره يومئذ قتالاً حسناً، فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه"[1].

---

١ ـ أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى: ج٨ ـ ص ٢٣٩.

وهكذا أصبح عنترة بن شداد العبسى فارساً حراً بين فرسان أحرار، ولكن العقدة النفسية التي حفزته إلى تحقيق الوجود الحر لم تبدد، وإنما ظلت تعمل عملها المستمر لتحقيق التفوق، ذلك لأنه إذا كان قد أحرز المساواة في الحرية من الناحية المعنوية، فإن لونه الأسمر ظل كالحاجز بينه وبين الآخرين، بل ظل كالعلامة التي تعبر عن أصل مختلف، ولذلك لم ينقطع هذا الفارس الأسمر عن الشعور بالمغايرة، والإحساس بالنقص، ولابد لمثله أن يحقق عملاً خارقاً يرغم المجتمع على الاعتراف - لا بمساواته - ولكن بامتيازه. ومن حق كل امرئ حر أن يبنى بابنة عمه، وبخاصة في المجتمع العربي الذي لا تزال بعض تقاليده راسخة في البداوة وما يشبهها إلى الآن، فإذا أراد أعرابي أن يزوج ابنته كان عليه أن يحصل على الإذن من ابن عمها أولاً، ومع ذلك أحب عنترة ابنة عمه عبلة، واقترن اسمه بها، ولهج بذكرها في شعره، ووضعت الحواجز أمام هذه الرغبة، وأني له أن يحققها وهو الذي لم يولد حراً من أم حرة.. وهو الأسمر المعروف بشفته الفلحاء، واندفع الفتى يتفوق على الفرسان ويستكمل مقومات المثال الذي تنشده الجماعة في الفارس الكامل، وكثيراً ما غضب وهجر قومه لكى يحسوا الفراغ بدونه، ويستشعروا الحاجة الملحة إليه، وتتحول أخباره إلى المألوف في بطولات الخوارق، ويطالب عمه من ابن أخيه أن يقوم بالمستحيل لكى يحظى بشرف الإصهار إليه، أن يأتى بالنوق العصافير.

وتختلف قصة الحب التي قرنت اسم عبلة بعنترة في أذهان الرواة والعلماء وعامة الناس عن مثيلتها في العصر الإسلامى، فنحن نذكر أن أبا الفوارس، ردد اسم صاحبته كثيراً في شعره، بل إنه جعلها محوراً رئيسياً تدور عليه معلقته المشهورة، ومع ذلك لم تقم هذه القصة على الصراع بين الحب الأفلاطونى من ناحية، وبين عرف الجماعة أو تقاليدها من ناحية أخرى كما هو الشأن في قصة "ليلي والمجنون"... كان الحب عند عنترة حافزاً رئيسياً من الحوافز النفسية على تحقيق الوجود، والظفر بالحرية، والتفوق على الفتيان والأنداد، ولم تكن رمزاً لوجود خلاف أو صراع بين الفرد وبين إطاره الاجتماعى... كانت عند عنترة العامل على الالتحام بالإطار الاجتماعى، وتأكيد المثال الذي ترتضيه الجماعة لكل فرد حر من أفرادها الأحرار. أما ليلي وصاحبها قيس، فكانت قصتهما رمزاً لتطور جديد من النموذج في القبيلة إلى الشخصية الفردية في المجتمع الإسلامى. والحب في القصتين عذرى عفيف. وهو ما ميز عنترة بن شداد العبسى عن الفرسان الجاهليين النابهين في نظر الشعب العربى، فانتخبه وعمل على تجسيم شخصيته والتزيد في سيرته وأخباره ووقائعه. ولابد للباحث أن يفرق هنا بين صنيع الخبر التاريخى، أياً كانت صلته بالواقع، وبين الملحمة الشعبية، فإن الأول يتسم بالتعميم ويؤثر التبرير، وقد يميل إلى التعليل، أما الثانية فتجنح إلى التفصيل والتخصيص بما تعرض من شخوص ومواقف وعلاقات وأقوال.. وأياً كان الأمر من ناحية التحقيق التاريخى، فإن قصة الحب كانت محوراً رئيسياً جعلت عنترة لا يذكر إلا إذا ذكرت معه صاحبته عبلة. وليس أدل على هذا الاقتران من قيام تقاليد الزواج في بعض البيئات البدوية إلى الآن بتمثيل فروسى لعنترة وعبلة حتى في بعض إمارات الخليج العربى.

وكان من الطبيعى أن يتحد التفوق في الفروسية بالنبوغ في الشعر إبان العصر الجاهلي وفي مرحلة نقاء الجنس، ذلك لأن الشعر لم يكن مجرد تزجية فراغ يقوم بوظيفة التسلية والترفيه، ولكنه كان في واقع

أمره جهداً حيوياً تتطلبه القبيلة في تحقيق وجودها المتميز بأنسابها، المتفوق بأيامها، ولذلك امتزجت الفروسية بالشعر، واشتهر بهما معاً صوالون فوالون من فرسان الجاهلية. ولا تحجب الطبيعة الغنائية الغلابة على الشعر الجاهلي وظيفته الحيوية في القبيلة، ومهما استطاع الباحث أن يتبين بعض المقومات الشخصية في عنترة العبسى، فإن هذه المقومات إنما تصور النموذج والمثال لما ينبغى أن يكون عليه الفارس الجاهلى، وهذه معلقة عنترة المشهورة تصور بجلاء هذا النموذج، وذلك المثال، فهو لا ينازل إلا خصماً يكافئه قوة وشجاعة، وكرم محتد. وهو "يعف عند المغنم" والعلاقة بينه وبين فرسه آصرة تضعف أمامها جميع الأواصر... إنه ليس كائناً خارجاً عن ذات الفارس، ولكنه جزء لا يتجزأ من شخصته، وبينهما من التعاطف ما يجعله نجى الفارس، وكأنه القرين الخفي أو القوة الدافعة إلى النصر، أو الضمير الضابط للسلوك. ولقد عرفت الآداب الأوروبية هذه الحقيقة الرائعة في شعر الفروسية العربية فسجلتها ونقلت الكثير من شواهدها. وعنترة في معلقته سمح كريم يستعلى على الصغائر، وينهض بما ينبغى للفروسية من تقاليد في الشراب وما إليه فهو "هتاك رايات الخمار" ومن الظلم لشعر الفروسية الجاهلية أن يحكم عليه بمعيار أخلاقى فحسب، فلا تزال أمثال هذه التقاليد موجودة في البيئات الجرمانية التي ترد أصولها إلى الفروسية.

وفطن الشعب العربي إلى هذه المقومات جميعاً في عنترة بن شداد العبسى فانتخبه، مؤثراً إياه على غيره من الفرسان الجاهليين، وألف من صراعه في سبيل الحرية وظفره بها عن طريق النفع العام، ومن حبه العذرى العفيف لابنة عمه، ومن عمله الدائب على تحقيق الوجود والتفوق معاً، ومن اتصافه بالمروءة العربية التي تجمع في قوسها أسباب القوة والشهامة والاستعلاء وحماية الأهل والوطن والمال، وإغاثة الضعيف والملهوف.. ألف من هذا كله نواة متحدة العناصر، منسجمة الأجزاء، وأخذ ينميها ويصقلها لتكون تعبيراً متكاملاً عن رأيه في نفسه وعن موقفه من غيره، وعن الأهداف التي ينبغى أن يعمل لتحقيقها، فكانت الملحمة التي أخذت مكانها بين الروائع من ملاحم الشعوب.

تاريخ السيرة

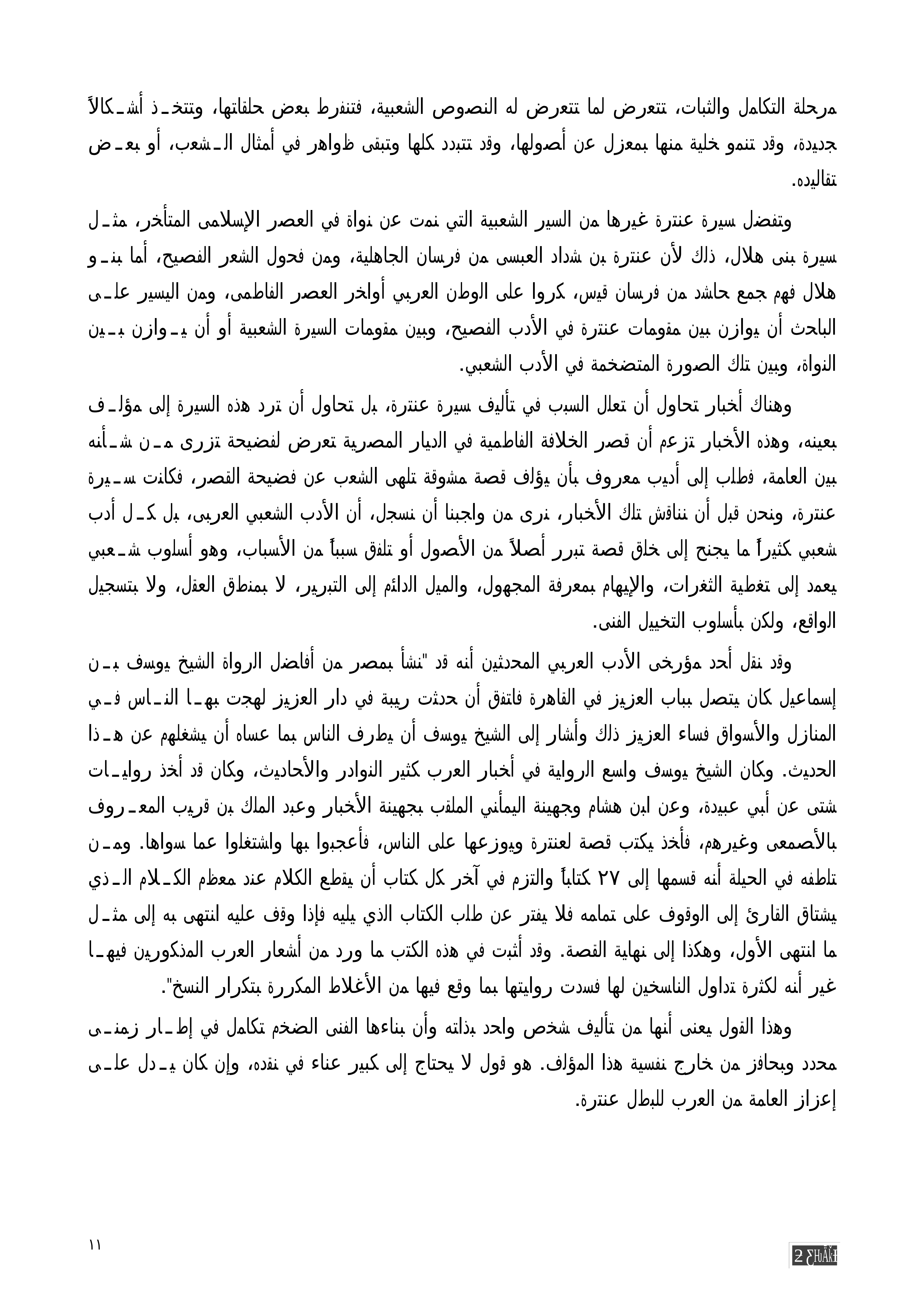
ولقد حرص بعض مؤرخى الأدب العربي الجاهلي شرقيين ومستشرقين، على الموازنة بـين الأخبـار والروايات من جهة، وبين المعالم التاريخية البارزة من جهة أخرى لكى يحددوا الفترة الزمنية التي استغرقتها حادثة أو واقعة، ولكى يضبطوا التاريخ - ولو بصورة مقاربة - لميلاد علم من الأعلام أو رفاقـه. ونحـن نسجل هنا أن الجاهلية المعروفة ليست كل الزمان الذي سبق التاريخ العربي المدون... إنها ليست عصر مـا قبل التاريخ العربى، ولكنها الجاهلية الثانية باعتراف المؤرخين الأقدمين أنفسهم، وسبقتها من غير شك جاهلية أولي أطول عمراً. والجاهلية الثانية التي أثمرت عنترة بن شداد العبسى، إنما سبقت الإسلام بفتـرة وجيـزة، وعلى الرغم من القول المردد في إنكار الروايات والأخبار المتعلقة بهذا الفارس الشاعر، وعلى الرغم أيضاً من شك بعض الدارسين فيما نسب إلى أبي الفوارس من شعر فصيح، فإن هناك علاقة وثيقة بين هذا الفحـل من أصحاب المعلقات، وبين أيام داحس[1] والغبراء، وهى الأيام المشهورة بوقائعها التي اشتجرت بين عـبس وذبيان وما من كتاب سجل "أيام العرب" طوالها وقصاراها إلا وذكر معها اسم الشاعر الفارس عنتـرة بـن شداد العبسى، ولقد جمع عنترة في هذه الأيام بين الفروسية والشعر معاً، وما أكثر ما أبلي فيها البلاء الحسن هجوماً ودفاعاً وحماية للظعائن ومن شعر عنترة في واقعة الفروق التي تبعد عن سوق هجر نصف يوم يقول عنترة:

ونحن منعنا بـالفروق نـسـاءنا
نُطرفُ عنهـا مبـسلات غواشيـا
حلفت لها والخيل تـدمى نحورهـا
نفارقكـم حتـى تهـزوا العواليـا
ألم تعلمـوا أن الأسـنة أحـرزت
بقيتنا لـو أن للدهــر باقيــا
ونحفظ عورات النسـاء ونتقى
عليهن أن يلقـين يومـاً مخازيـا

ونحن إذا حاولنا أن نؤرخ لهذه السيرة الشعبية فإن علينا أن نتذكر حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها وهـى استحالة تحديد فترة مضبوطة استغرقتها قريحة أديب ما في الجمع والتأليف، ذلك لأن الآثار الـشعبية تتـسم بالحياة والمرونة معاً... تسقط منها حلقات، وتضاف حلقات، ويتعدل السياق، وتختلف الوظـائف وإن ظلـت المحاور الرئيسية على حالها لثبات الحوافز إلى وجود هذه الآثار وتفاعلها المـستمر مـع وجـدان الـشعب العربى. وليس صحيحاً أن يزعم دارس أن هذه السيرة وأشباهها قد نجمت في حدود سنوات بأعيانها، وأنهـا من تأليف شخصية معروفة بمقومات النفسية وخصائصها الأسلوبية. والصحيح أنها كانت نواة ثم نمت علـى الأيام حتى تكاملت فاستقرت آخر الأمر على صورة ثابتة لا تكاد تتغير، والصحيح أيضاً أنهـا، حتـى بعـد

---

١ - اسما فرسين لقيس بن زهير وتشتمل هذه الحرب أيام المريقب وذى حساء واليعمرية والهباوة وفروق وقطن.



مرحلة التكامل والثبات، تتعرض لما تتعرض له النصوص الشعبية، فتنفرط بعض حلقاتها، وتتخذ أشكالاً جديدة، وقد تنمو خلية منها بمعزل عن أصولها، وقد تتبدد كلها وتبقى ظواهر في أمثال الشعب، أو بعض تقاليده.

وتفضل سيرة عنترة غيرها من السير الشعبية التي نمت عن نواة في العصر الإسلامى المتأخر، مثل سيرة بنى هلال، ذلك لأن عنترة بن شداد العبسى من فرسان الجاهلية، ومن فحول الشعر الفصيح، أما بنو هلال فهم جمع حاشد من فرسان قيس، كروا على الوطن العربي أواخر العصر الفاطمى، ومن اليسير على الباحث أن يوازن بين مقومات عنترة في الأدب الفصيح، وبين مقومات السيرة الشعبية أو أن يوازن بين النواة، وبين تلك الصورة المتضخمة في الأدب الشعبي.

وهناك أخبار تحاول أن تعلل السبب في تأليف سيرة عنترة، بل تحاول أن ترد هذه السيرة إلى مؤلف بعينه، وهذه الأخبار تزعم أن قصر الخلافة الفاطمية في الديار المصرية تعرض لفضيحة تزرى من شأنه بين العامة، فطلب إلى أديب معروف بأن يؤلف قصة مشوقة تلهى الشعب عن فضيحة القصر، فكانت سيرة عنترة، ونحن قبل أن نناقش تلك الأخبار، نرى من واجبنا أن نسجل، أن الأدب الشعبي العربى، بل كل أدب شعبي كثيراً ما يجنح إلى خلق قصة تبرر أصلاً من الأصول أو تلفق سبباً من الأسباب، وهو أسلوب شعبي يعمد إلى تغطية الثغرات، والإيهام بمعرفة المجهول، والميل الدائم إلى التبرير، لا بمنطق العقل، ولا بتسجيل الواقع، ولكن بأسلوب التخييل الفنى.

وقد نقل أحد مؤرخى الأدب العربي المحدثين أنه قد "نشأ بمصر من أفاضل الرواة الشيخ يوسف بن إسماعيل كان يتصل بباب العزيز في القاهرة فاتفق أن حدثت ريبة في دار العزيز لهجت بها الناس في المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك وأشار إلى الشيخ يوسف أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث. وكان الشيخ يوسف واسع الرواية في أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة، وعن ابن هشام وجهينة اليمأني الملقب بجهينة الأخبار وعبد الملك بن قريب المعروف بالأصمعى وغيرهم، فأخذ يكتب قصة لعنترة ويوزعها على الناس، فأعجبوا بها واشتغلوا عما سواها. ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها إلى ٢٧ كتاباً والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الكلام الذي يشتاق القارئ إلى الوقوف على تمامه فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه فإذا وقف عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى الأول، وهكذا إلى نهاية القصة. وقد أثبت في هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الأغلاط المكررة بتكرار النسخ".

وهذا القول يعنى أنها من تأليف شخص واحد بذاته وأن بناءها الفنى الضخم تكامل في إطار زمنى محدد وبحافز من خارج نفسية هذا المؤلف. هو قول لا يحتاج إلى كبير عناء في نقده، وإن كان يدل على إعزاز العامة من العرب للبطل عنترة.



ومما يدخل في باب الإيهام الفنى تشبث السيرة نفسها، بعد أن تكاملت، بالانتساب إلى واحد من أعاظم الرواة والإخباريين وهو الأصمعى، ولم تحفل السيرة بترجمة صحيحة لهذا الراوية الفحل، ولم تشغل مستمعيها أو قراءها بعد ذلك بطاقة الحياة الإنسانية، ولكنها عمدت إلى أسلوبها المقرر المعروف بالجنوح إلى المبالغة في الخيال، فقد ذكرت أن الأصمعى من المعمرين، وأنه عاش ما يقرب من سبعة قرون، ولم يكن هذا التلفيق عبثاً، وإنما كان فنياً في جملته وفي تفصيله للإيهام بأن هذا الراوية عاصر أحداثاً وأجيالاً، وأن ذاكرته كانت بمثابة التاريخ القومى للأمة العربية بأسرها. وحرصت السيرة على أن تذكر أنها إنما نشأت في العصر الذهبي للدولة الإسلامية، أى في عصر هارون الرشيد، وفي بلاطه، وذلك لكى تؤكد الحافز على تكاملها وهو الموازنة الضرورية بين واقع الأمة العربية المغلوبة على أمرها في أوليات الحروب الصليبية، وبين عصر البطولة الجاهلية، وما ينطوى عليه من فضائل نقاء الجنس، والعصر الذهبي الذي بلغته أمة العرب والإسلام أيام الرشيد عندما كانت هى الأمة المستكملة للتفوق الحضارى على غيرها من الأمم. فإذا أضفنا إلى هذا كله التشبث بالمنهج الفنى نفسه، تأكيداً لواقعية الأحداث بالقول بأنها روايات مباشرة عن عنترة نفسه، وعن حمزة، وأبي طالب، وحاتم الطائى، وامرئ القيس، وهانئ بن مسعود، وحازم المكى، وعمرو بن ود، ودريد بن الصمة، وعامر بن الطفيل، فإننا نكاد نقطع بأن التشبث بالأصمعى، وإيراد أسماء هؤلاء الأعلام جميعاً، لا يدل على حقيقة تاريخية أو شبه تاريخية، بقدر ما يدل على الإيهام الفنى بواقعية الأحداث والشخوص، وإن خرجت عن المألوف والممكن والمعقول.

وكل من يراجع هذه السيرة في صورتها المتكاملة المدونة يجد أنها تردد مصطلحات معروفة في عالم التأليف العربى، وهى مصطلحات متباينة الدلالة، وتوهم بدورها، بأن السيرة متعددة المصادر، منوعة الموارد، مختلفة الأطوار. فهى تذكر - مثلاً - الراوى وهو كما نعلم مصطلح يدل على جامع الأخبار والأقوال عن طريق المشافهة واللقاء المباشر، وتذكر الناقل، وهو لفظ يدل على حكاية الخبر بحذافيره، كما يدل على التطور من الرواية الشفوية إلى النسخ والتدوين، وتذكر المصنف، وهو الذي يعمل على الجمع والترتيب معاً، وهو مرحلة أقل هوناً من المؤلف. ويبدو أن هذه المصطلحات إنما اقتبست من رواية التاريخ والأدب الفصيح، ونحن نعلم أن المعرفة العربية، احتفلت منذ البداية بالخبر والإسناد معاً، وهو تقليد نفذ إلى منهج الأدباء الشعبيين الذين اتخذوا في مجتمعاتهم سمت العلماء ومكانتهم.

ويدخل في هذا الباب ما تورده السيرة أيضاً، من أن لها موردين رئيسيين، أو روايتين مختلفتين، فهى تذهب إلى أن هناك "السيرة الحجازية" لكى تدخل في روع المتذوقين أنها جمعت من أفواه أبطالها مباشرة، وجنحت تبعاً لذلك إلى جعل الحجاز هو الموطن الأول لأحداثها، وهو تلفيق لا يحتاج إلى معاناة في رفضه، وذكرت أيضاً، أن هناك السيرة العراقية، وربما أسهمت العراق في نمو هذا الأثر الشعبي، ولكن القول بوجود رواية عراقية متميزة، لا يستند هو الآخر إلى واقع أو شبه واقع... وخير من هذا كله أن يحاول الباحث تمييز الإشارات التي تنطق بيئتها وعصرها، والتي تدل مجتمعة على أطوار النمو والتكامل.

لقد استغرق مسرح الأحداث في هذه السيرة الشعبية العالم المعروف بأسره قبل الكشوف الجغرافية، كما أن الزمن الذي استغرقته يستوعب ما يقرب من ستة قرون، ومع ذلك فإن الباحث يستطيع أن يحدد - بصفة مقاربة - المرحلة الأولي لنموها عن النواة الجاهلية الأصلية إلى شجيرة تنم عن فصيلتها، وذلك بالرجوع إلى المجلد الحادى والثلاثين من هذه الملحمة الطويلة الضخمة، فإن عنترة يغوص في نفسه، ويستجمع وقائع سيرته وهو يحتضر بقصيدة طويلة، وهو فيها يفاخر بانتصاراته في جزيرة العرب، وفي العراق، وفارس، والشام، ولكنه لا يشير من قريب أو بعيد إلى بلاد الروم، أو الأندلس، بل لا يذكر شيئاً عن برقة ومصر والسودان والحبشة وبلاد الهند. وهذه القصيدة إنما تنبض بعاطفة حب واحدة وهى العاطفة التي عرفناها عند عنترة بن شداد الفارس الجاهلى، ولذلك يمكن أن يقال إن النواة التي أثمرتها الفروسية الجاهلية، والتي قرنت اسم عنترة بعبلة، وجعلت منهما المحور الرئيسى للأحداث هى التي ترعرعت في مرحلتها الأولى، ثم مرت بعد ذلك بمرحلة تالية تكاملت فيها.

ويذهب المستشرق هار إلى أن سيرة عنترة إنما بدأ تصنيفها في أوائل النصف الثأني من القرن الثأني عشر الميلادى، وإن كان قد أورد بعض الأدلة التي تبين أن هذه السيرة كانت معروفة في طورها الأول قبل ذلك بحوإلى ثلاثة قرون[٣].

ولا يزال الدارسون يعكفون على النظر في مخطوطات هذه السيرة المبعثرة بين دور الكتب في القاهرة وصنعاء واسطنبول وباريس ولندن وبرلين وغيرها. وقد تنتهى دراساتهم إلى نتائج ذوات قيمة في ترجيح فترة زمنية أو فترات زمنية، استغرقتها هذه الملحمة الضخمة في التطور ثم التكامل فالثبات على صورتها الأخيرة التي يعرفها العالم الآن، بيد أن هذه النتائج لن تخرج على الترجيح إلى اليقين، ذلك لأن مثل هذا النص الشعبي في تأليفه وتذوقه جميعاً، لا يمكن أن يخضع للأصول والقواعد التي تخضع لها نصوص التراث الرسمى، أو الفصيح المعتبر، ولقد فات بعض الباحثين أن النص الشعبي، وإن قام في أصله على الحفظ والرواية الشفوية، والأداء المستقل عن القراءة فإنه يتوسل بالتدوين في بعض البيئات والعصور. وهذا التوسل لا يخرجه عن شعبيته بحال من الأحوال. والمتخصصون في الفنون والآداب الشعبية يقررون هذه الحقيقة ويسجلون بعض الشواهد التي توسلت بالتدوين ويذهبون إلى أن الشواهد الشعبية المدونة متأخرة عن مرحلة الإبداع وما تلاها ويلاحظون أن بعض المحترفين يلجأون إلى التدوين، خوفاً من ضعف الذاكرة ولكنهم في الوقت نفسه كثيراً ما يستعملون رموزاً خاصة بهم يثبتونها في تضاعيف النص حتى تظل النصوص مصونة، إلا على أصحاب الحرفة، كما أنهم يسقطون في أحيان أخرى مشاهد كاملة ويكتفون بمجرد الإشارة إليها لأن هذه المشاهد من الذيوع والشهرة بحيث لا تند عن الذاكرة. وهى مشاهد كثيراً ما ينقلونها من سيرة إلى سيرة. ومن أجل ذلك كان من الضرورى أن يعتمد الباحث على الأداء الحى المتكامل وأن يعمد إلى تحليله من داخله قبل أن ينظر في المخطوطات.

---

١ - دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج١٢، ص ٤٦٥.

وتقودنا هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى لا تقل عنها أهمية، فيما يتعلق بتاريخ السير الشعبية العربية بصفة عامة، وتاريخ سيرة عنترة بصفة خاصة وهى أن الظواهر الأسلوبية لا تقوم هى الأخرى دليلاً على عصر التأليف أو بيئته أو شخصية المؤلف أو المؤلفين لأن سيرة عنترة وأمثالها تخضع للقوانين التي تحكم المأثورات الشعبية، فإن هذه المأثورات تسير في طريقين متعاكسين، أولهما من قاعدة الهرم الاجتماعى إلى ما فوقها من الطبقات الاجتماعية والثاني يسير من قمة الهرم الاجتماعى إلى سفحه.

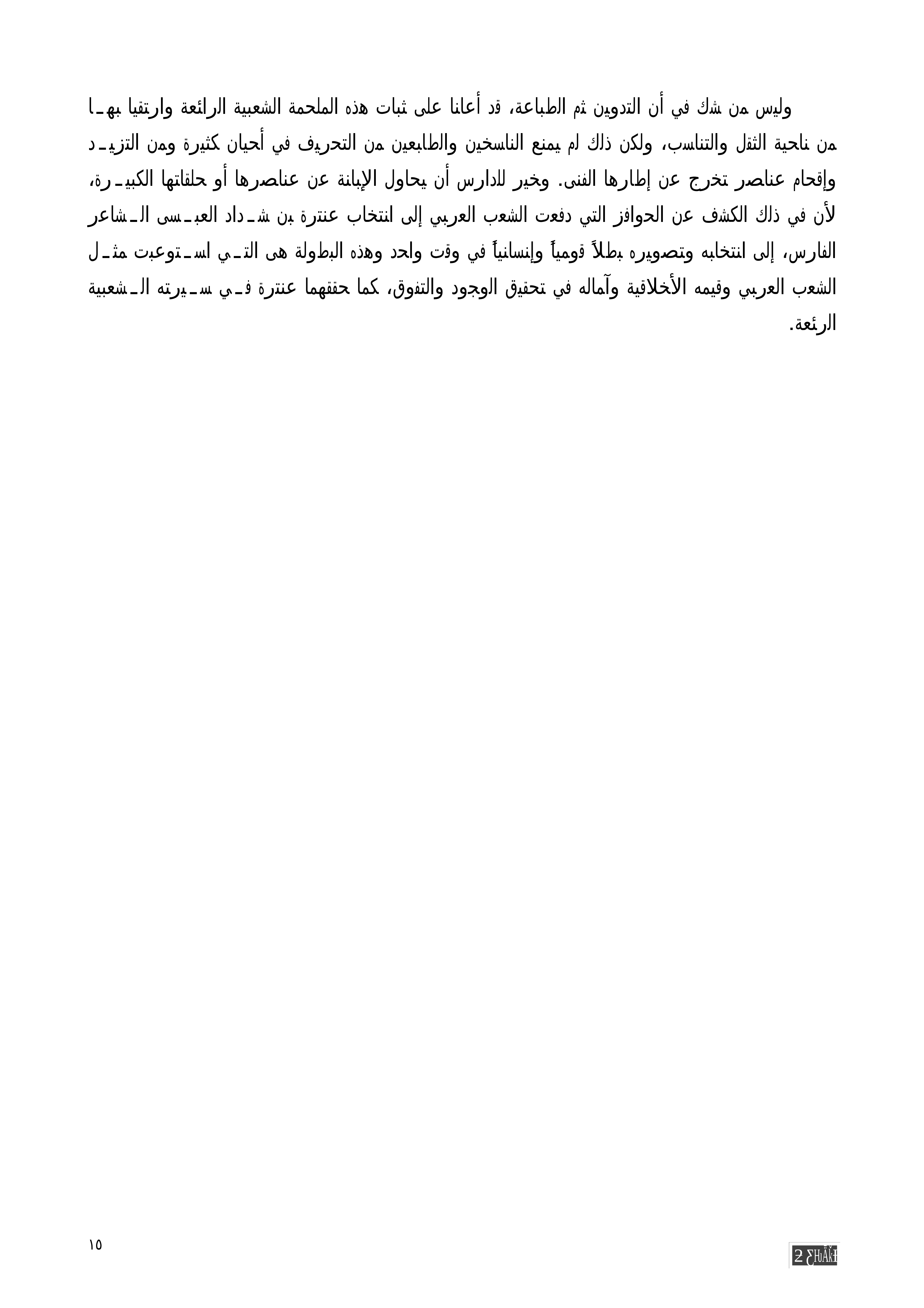
ولا يتعارض هذا السير مع شعبية تلك المأثورات كما أن القرية كثيراً ما تأخذ من البداوة وكثيراً ما تعطى المدينة. وفي مقابل هذا تتقبل البيئة الريفية بعض ما تصدره المدينة من القيم والمثل ومن التعابير الأدبية والفنية. وسواء أكانت سيرة عنترة قد انحدرت من القمة إلى السفح وبدأت جزلة اللفظ معربة التركيب أنيقة الصياغة، أو ارتقت من القاعدة فصقلت ألفاظها وأحكمت عباراتها فإنها في الحالين ارتبطت بالشعب: هو الذي انتخبها ونماها، أو أعان على تنميتها وهو الذي جعلها جزءاً لا يتجزأ من كيانه المعنوى يعبر بها عن ذاتيته العامة وموقفه الخاص في مختلف البيئات وعلى مر القرون. ونحن نضرب المثل على الفارق بين أسلوبين في نسخ السيرة ولننظر في هذه العبارة الأنيقة: "قال الأصمعى؛ ونزلت عليهم البوائق. وحقت منهم الحقائق. وتضاربوا بالسيوف على العواتق فقطعت منهم العلائق وتطاعنوا بالرماح فكانوا للدروع خوارق، وتضاربوا بالسيوف فكانوا كالصواعق، فلم ير إلا رمح خارق وسيف بارق وفارس شاهق والخصم لخصمه معانق والشجاع في الدم غارق. والقنا عليهم قد مد على الفرسان سرادق، فسبحان العظيم الخالق، والحاكم بالفنا على الخلائق"[٤]. وهذا وصف يتسم بالتعميم لإحدى المعارك التي خاضها عنترة منتصراً على أعدائه، ومن الممكن تطبيقه على أية معركة أخرى في سيرة شعبية غير هذه السيرة.

أما المثل الثاني فهو أيضاً على تعميمه يختلف عن الأول من ناحية الأسلوب: وهو تصوير لمعركة خاضها مظفرا الغضبان بن عنترة "قال الراوى: إنهما حملا على بعضهما بعض وجالا طولا وعرض ومال كل منهما على صاحبه واحترز من وقع طعانه ومضاربه وتثلمت في أيديهما سيوفهما وكلت سواعدهما فعند ذلك حقد الغضبان على خصمه وهجم عليه كأنه فرخ الجان وضربه بالحسام فالتقاه بكفه فانقطع وأثنى على رأسه فوقع وعن جواده مال وانصرع فصاحت بنو مزينة فحملت على الغضبان حملة عنان فهنا لك علم مقصودهم فحمل والتقاهم بقلب أقوى من الحجر وجنان أجرى من تيار البحر إذا زخر وسطا على الشجعان ومال على ذلك الجمع وأبلاهم بالضرب والطعان فصار يجول فيهم وحده وهم يتنافرون من بين يديه، وما منهم أحد يستطيع الوصول إليه وداموا على ذلك الحال إلى وقت الزوال"[5] وعلى الرغم من الفارق بين المشهدين فإننا نلاحظ التفاوت الهائل في الأسلوب مما يؤكد تداخل الثقافة الشعبية في العلم التقليدى والأدب الرصين، وهذا ثمرة الحركتين اللتين تسير فيهما المأثورات الشعبية صعوداً وهبوطاً بين قمة الكيان الاجتماعى وسفحه.

---

١ ـ من مخطوطة عن المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة مصورة من نسخة بمكتبة أحمد الثالث باستامبول، وتجد وصفاً لها وتحليلاً في (سيرة عنترة للدكتور محمود الحنفي ذهنى) رسالة جامعية، ص ١٣٢.

١ ـ سيرة عنتبرة بن شداد ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة سعيد الخصوصى، المجلد السادس، ص ١٥٤.



وليس من شك في أن التدوين ثم الطباعة، قد أعانا على ثبات هذه الملحمة الشعبية الرائعة وارتقيا بها من ناحية الثقل والتناسب، ولكن ذلك لم يمنع الناسخين والطابعين من التحريف في أحيان كثيرة ومن التزيد وإقحام عناصر تخرج عن إطارها الفنى. وخير للدارس أن يحاول الإبانة عن عناصرها أو حلقاتها الكبيرة، لأن في ذلك الكشف عن الحوافز التي دفعت الشعب العربي إلى انتخاب عنترة بن شداد العبسى الشاعر الفارس، إلى انتخابه وتصويره بطلاً قومياً وإنسانياً في وقت واحد وهذه البطولة هى التي استوعبت مثل الشعب العربي وقيمه الأخلاقية وآماله في تحقيق الوجود والتفوق، كما حققهما عنترة في سيرته الشعبية الرئعة.

بطولة عنترة

وهذه السيرة يغلب عليها الطابع الملحمى وهى تماثل السير الشعبية الأخرى من هذه الناحية ولكنها في الوقت نفسه أوسع مجالاً من شقيقاتها. وهى كغيرها من الملاحم تختلف عن كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي يجمع المتخصصون في الآداب الشعبية على جعله مثالاً للقصص الشعبي على الرغم من أسـلوبه وبنائـه الفنـى. ويأتى الاختلاف من الناحية الوظيفية في كل منهما، فإن الليالى تعمد إلى التشويق بالجمع بين التنوع والتداخل معاً، أما سيرة عنترة فأدنى إلى الكائن العضوى الذي أخذ في النمو حتى تضخم عنـدما تكاملـت صـورته. ووظيفة الليالى هى العمل بوساطة القصص على إيثار الوسط الذهبي في الـسلوك وهـو الاعتـدال وعـدم الاستجابة لنزعات الغضب وهى وظيفة عرفتها الحكايات الشعبية الهندية قبل "ألـف ليلـة وليلـة" بأحقـاب وأحقاب. بيد أن سيرة عنترة إنما تستجيب لحوافز قومية وإنسانية، وقد تحولت آخر أمرها إلى عامل حيـوى من عوامل التسلية والترفيه بتفريغ شحنة الشعور عند العرب بوسيلة تخيلية تجعل الحلم مقدماً على الواقع في نفوس الجماهير.

ويستطيع الباحث أن يستجلي مراحل البطولة العنترية في السيرة باستجلاء مختلف الوظائف التي تقوم بها. وإذا كان الدارسون قد استطاعوا أن يتبينوا في كتاب "ألف ليلة وليلة" بيئات مختلفة تكاملت فيها الليـالى مثل بيئة الهند وفارس وبيئة العراق وبيئة مصر فإننا بالاعتماد على الجانب الوظيفي في السيرة نـستطيع أن نتبين الحلقة العربية القومية والحلقة الإسلامية والحلقة الإنسانية إلى ما يشوب هذه الحلقات من حصيلة معرفة وركام أساطير.

ولقد استغرقت السيرة خمسة قرون أو تزيد، واستنفدت في تأليفها حتى تكاملت مرحلة أطـول. وهـى لذلك تشبه بؤرة العدسة في تجميع المعارف والخبرات والتعابير والروايات والأخبار، ولما كانـت الـشعوب ليست جزراً منعزلة عن الجماعات الإنسانية الأخرى، فإن سيرة عنترة تعكس تراكم الثقافة العربية على مدى القرون ولا تجد بأساً من تمثل ثقافات أخرى من بلاد فارس ومن بيزنطة وروما ومن قلب إفريقيـا، بيـد أن هذه العناصر الثقافية كلها قد انتخبها مزاج الشعب العربى، وطبعها بميسمه.

ولنبدأ بالحلقة العربية القومية وهى تضرب بجذورها في جزيرة العرب، وهى مـوطن نقـاء الجـنس وتنتظم تاريخ الشعب العربي في الجاهلية والإسلام معاً وهى تشبه – إلى حد ما – أيام العرب التي تنقـسم إلى أيام جاهلية وأخرى إسلامية. ولقد فطن مؤلفو السيرة إلى وجوب المزاوجة بين الوظيفة القومية والوظيفة الدينية فمهدوا لأحداث الملحمة بقصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وساروا في ذلك على منهج مصنفي التـاريخ العام ومنهج النسابة الذين يقدمون لوقائع التاريخ أو سلاسل النسب، بالحديث عن سيدنا إبراهيم وفـي ذلـك إرهاص بظهور الإسلام في الوقت نفسه.

وفي هذا الإطار نشأ عنترة مع إبراز الاستعداد لنشأته، وعند القصاص الشعبي الصورة الكاملة للفارس العربي كما ينبغى أن تكون في خياله، ولذلك رأينا هذا القصاص يرسم صورة عنترة في طفولته مخالفة كـل

المخالفة لصورة الأطفال والغلمان فقد كان وهو رضيع يمزق الأقمطة، ويسقط الخيمة وهو في الثانيـة مـن عمره، ويقتل الكلب وهو ابن أربع، والذئب وهو ابن تسع، والأسد وهو فتى، حتـى إذا اسـتكمل مـؤهلات الفروسية نهض بتبعاتها كخير ما ينهض الفارس المثالي وتجاوز الدفاع عن القبيلة إلى توحيد الجزيرة العربية فنازل الأقران حتى اعترفوا به مقدماً عليهم وصرع الأعداء الذين يكافئونه عزيمة وجلداً وإقداماً. وهو فـي هذه المعارك والثارات يحقق فضائل الفروسية ويوحد العرب ويستعلى على الصغائر ويكتفـي مـن بعـض أعدائه بالإقرار له بالغلب. ويصدر في سلوكه عن حب عذرى لابنة عمه عبلة، ويجعل من حبه هدفاً يمتزج بتحقيق الفضائل والمثل: من أجلها ومن أجل المجتمع بأسره حقق ذاته، وباسمها كان القسم حتى في حومـة الوغى، وبين قعقعة السلاح وسقوط الأبطال، تماماً كما هو شأنه في الأدب الفصيح حين يهتف بهذين البيتين الرائعين:

ولقد ذكـرت والرمـاح نواهــل
منى وبيض الهند تقطر مـن دمـى
فـوددت تقبيل الـسيـوف لأنهـا
لمعت كبـــارق ثغـرك المبتـسم[1]

ومن أبلغ أمارات الفروسية العربية الإلحاح على علاقة الفارس بسلاحه رمحاً كـان أو سـيفاً، وهـى علاقة تسبغ الحياة على السلاح وتمنحه اسماً يخصصه ويعرف به وتجعله جارحة أصيلة من جوارح الفارس لا تنفصل عنه فالسيف ليس وسيلة فحسب ولكنه إرادة الفارس المحققة لأهداف الفروسية. وليست سيرة عنترة بدعاً في تأكيد هذه العلاقة بين ملاحم العرب الأخرى ولكنها تبالغ في تصويرها. ويشبه عنترة فـي عـشقه لسيفه، وفي حرصه عليه بطلاً آخر في سيرة عربية أخرى هو "دياب بن غانم" في سيرة بنى هـلال الـذي أوصى، إذا بلغته الوفاة أن يدفن إلى جانب سيفه: ومن هذه الأمارات البليغة أيضاً تعلق الفارس بالفرس فإنها أعظم بكثير من أن تكون مجرد مطية للفارس تعينه على الرحلة وعلى القتال: إنها أكبر من أن تكون شـارة عز وسؤدد لصاحبها في المجتمع الذي ينتسب إليه. ولقد كان "الأبجر" فرس عنترة رفيق سلاح فيـه ملامـح إنسانية، بل فيه أحياناً ملامح أسطورية، وليس هناك أوفي من الفارس لفرسه، ولا أحب من الفرس للفـارس وإن صورة عنترة وهو يتأهب للمعركة أو يخوض غمارها أو يعود منها منتصراً علـى عـدوه لمـن أروع الصور في ملاحم الشعوب على اختلاف عصورها وبيئاتها.

وكان من الطبيعى أن تتطور الوظيفة القومية العربية إلى وظيفة إسـلامية، ذلـك لأن الـوظيفتين لا تتعارضان ولكنهما تتكاملان والوجدان الإسلامى إنما هو نمو للوجدان القومى العربى. وكان من اليسير على القصاص الشعبي أن يمزج الوجدانين، وما أيسر أن يتوسع في الوجدان القومى حتى يلتقى بوجدان أرحب هو الوجدان الإسلامى، وأمامه "أيام العرب الإسلامية" ولكنه لم يصدر في توسعه عن عصبية ضيقة، قبلية كانت أو إقليمية، وإنما صدر عن مثل أعلى يحاول تمهيد الحياة للإسلام. من أجل هذا كله تجاوز عنترة بن شـداد

---

١ ـ ديوان عنترة.

الجزيرة العربية ورحل إلى فارس وإلى بلاد الروم وسار – ولكن بطريق عكسى في نفس الربوع التي سارت فيها الفتوح الإسلامية. وكان عنترة يعين قوماً ويحارب أقواماً، وفي هذه المرحلة ظهرت ملامح من المجتمعات الصليبية، وبرزت شواهد تدل على معرفة القصاص الشعبي ببعض مقومات المجتمعات الصليبية، ويبدو أنه ثقف هذه المعرفة في الفترة الأولي من الحروب الصليبية، ويبدو أيضاً أنه استمد معرفته من تلك الجيوب التي تسللت إلى داخل الوطن العربى.. ولقد صورت السيرة الشعبية التسامح الإسلامى كأعظم ما يصور، وفرقت بين السلام وبين الاستسلام وليس هناك اعتراف بهذه الفضيلة أقوى من اعتراف المستشرقين أنفسهم وهم يوازنون بين صنيع سيرة عنترة من ناحية وصنيع الملاحم الأوروبية التي تكاملت في القرون الوسطى. وهاك ما يقوله أحد هؤلاء المستشرقين:

"أما العطف الواعى على المسيحية والنظرة السمحة إليها فإن الصورة التي نستشفها من سيرة عنترة في ذلك تسمو كثيراً على الصورة التي تتكشف لنا عن النظرة التي تنظر بها الملحمة المأثورة عن مسيحية القرون الوسطى إلى الإسلام حيث يصور المسلمون وهم يعبدون أصناماً من قبيل أبولو، وكاهو، وكوملان، وجوبتر، ومارجو، ومالكدان، وتيرقاجان وما إليها، وتنظر سيرة عنترة إلى الحروب الصليبية نظرة لا تخلو من العطف والإعجاب. صحيح أن الصليبيين يذكرون فيها فيقال إنهم أولئك الذين يشخصون إلى الأراضى المقدسة طلباً للغنائم وفراراً من العقاب. إلا أن الفرنجة يقاتلون في سبيل الرب وفي سبيل نشر الدين"[١].

ومن الظواهر التي لها دلالتها في هذه السيرة أنها كانت تحاول أن تجعل الأعداء، في معظم الأحيان أنداداً للبطل عنترة، بل إنها بالغت كثيراً في الإلحاح على هذه الظاهرة حتى جعلت بعض فرسان الصليبيين من أبناء الفارس العربي وفي هذا، ما يدل على الاعتراف بشجاعتهم، ورد هذه الشجاعة بطريقة فنية لا تقيم وزناً للواقع التاريخى إلى أصل عربي فنحن نجد أن ولدى عنترة الذين أخذا بالثأر من قاتل أبيهما فارسان من بيئة غير إسلامية هما الفارسان المسيحيان، بل الصليبيان الغضنفر قلب الأسد وهو ابنه من أخت ملك رومه التي تزوجها وهو في رومه والجوفران (ولعله جوفرى) وهو ابنه من أميرة افرنجية، وما أروع القصاص الشعبي الذي أبرز بنوتيهما للبطل العربي قبل حادث مصرعه ثم ألقى عليهما تبعة الثأر لأبيهما. وما أروعه كذلك عند تصويره لهذين الفارسين غير الإسلاميين، وهما يتلقيان نبأ موت أبيهما، وكل ما يريد أن يقوله عن طريق الفن القصصى هو أن الشجاعة سمة من سمات العرب حتى ولو برزت في بيئة أخرى.

ومن اليسير أن يواجه المرء القيم الإنسانية في الآثار الأدبية الكبيرة مثل سيرة عنترة، فإن التحول من الصورة القومية العربية إلى الصورة الإسلامية العامة يعنى بالضرورة إبراز الفضائل الإنسانية الثابتة التي لا تكاد تتغير على اختلاف العصور والبيئات وعلى تباين الأديان والألوان، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الملاحم تتشابه في بعض الأنماط والنماذج والصور، ولعل هذا هو السبب أيضاً الذي جعل الباحثين يختلفون في البحث عن السبب. وأياً كان الباعث على التماثل أو التشابه فإن سيرة عنترة، كغيرها من الملاحم، تنأى بجانبها عن التخصيص ويعينها ذلك على إبراز الفضيلة العامة من خلال الشخصية أو الموقف.. الشجاعة

١ – برنهاود هيلر: دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، المجلد ١٢، ص ٤٦٢.

والحب والإيثار والتضحية والوفاء، كل أولئك فضائل ثابتة تخرج في يسر من الإطار القومى أو الحضارى الإسلامى إلى الدائرة الإنسانية الشاملة، ومن هنا كانت المرحلة الإنسانية في سيرة عنترة لا تقوم برأسها كجزء يمكن إبرازه أو فصله ولكنها تتداخل في أكثر تضاعيف هذه الملحمة الشعبية. ونحن الآن، إذا تركنا جانباً، المعارف الخاصة بالبيئة الجاهلية وبالقرون الأولي من الإسلام والمجتمع الصليبي فإننا نواجه دائماً المثل الإنسانية العليا مشخصة ومجسمة وواضحة من خلال الوصف، والتصوير ومن الإلحاح على نتائج الصراع، وإن كان مرتكزاً على الحرب في جملته وثمت حوادث كثيرة تؤثر السلام على الحرب في ملحمة تقوم دعامتها الأولي على المبارزة والالتحام. وتبلغ الملحمة، في هذه الناحية أوجها الفنى عند ختامها الذي يلخص نبل مقصدها فلقد كانت نهاية البطل على يد غريمه الأسد الرهيص، وكما بالغت السيرة في قوة عنترة وشجاعته وبصره بفنون القتال بالغت كذلك في تصوير غريمه حقداً ولدداً في الخصومة جعلاه لا يستطيع أن ينام عن ثأره من عنترة. وامتزج الفن القصصى بما ينبغى للصراع من تناقض بين الخصمين فالبطل عنترة متسامح عن اعتزاز بشهامته وكثيراً ما غاب خصمه الأسد الرهيص على أمره، وأوقعه في أسره، ثم لا يلبث أن يطلق سراحه. ولكن هذا الخصم يعيش بضغينه ويعود إلى التربص بعنترة، ولقد أفقده بطل الملحمة بصره آخر الأمر، ولكن وزر بن جابر – وهو اسمه – ظل يتدرب على الرغم من كف البصر، حتى استطاع أن يرمى الطير والغزال بقوسه مستعيناً على ذلك بالقدرة على تتبع أصواتها. وهى صورة فذة بين ملاحم الشعوب. ونجح في أن يصيب عنترة بأحد سهامه ومات وهو يتصور أنه أخطأ الهدف. وكانت نهاية البطل الملحمى الكبير أبي الفوارس عنترة مناسبة لشخصيته كنموذج رائع للفارس البطل.. لقد ظل على صهوة جواده الأبجر طوداً يتحاماه الأعداء بعد أن فارق الحياة.

قال الراوى: "... وسارت بنو عبس وتقدمت بين يديه وهو ينظر إلى عبلة والدموع تتحادر من عينيه فلما غابت عنه وهو متكئ على رمحه بيديه فشهق شهقة ونفخ نفخة فارقت روحه جسده والجواد واقف تحته لم يتحرك من مكانه لأن هذه كانت عادته منذ تربيته ونشأته وكان عنترة مدة حياته إذا نام ينام على ظهر حصانه... هذا وهؤلاء العربان يظنون أن عنترة على قيد الحياة ولم يعلموا أنه شرب شراب الوفاة إلا أنه واقف يطلب منهم الحرب والقتال فقالوا لبعضهم يا ويلكم ارجعوا على أعقابكم من قبل أن تعدموا نفوسكم!!!"[٨].

وارتفع عنترة بن شداد العبسى إلى مقام أسمى من مقامات آخرين في نظر القصاص الشعبي. ونحن نعلم أن العربي يفاخر بنسبه الذي يقص أثر آبائه، وهو مع ذلك يفاخر بخؤولته. ولقد كان عنترة عديم الخال لأنه ولد من أمة حبشية، بيد أن السيرة الشعبية لم تزل تسير ببطلها في إفريقيا حتى بلغ قلبها ثم يتجه إلى بلاد الحبشة، لا يتوقف عن رحله ولا يحجم عن واقعة وهناك تستبين له الحقيقة – في تصور القصاص الشعبي – وهى أن زبيبة أم عنترة من نسل ملكى.. إنها ابنة النجاشى ملك الحبشة!!! وتبعاً لذلك فقد كان من

---

١ – سيرة عنترة – طبعة القاهرة – ج٨ – ص ١٨٢ – ١٨٣.

حقه أن يفاخر بشرف الانتساب إلى عبس وشرف الانتساب إلى ملوك الحبشة في وقت واحد وفي هذا تعليـل فنى بررت به الملحمة تفوقه في قوة البدن وقوة النفس، كما بررت ترفعه عن الصغائر وعفته عند المغنم.

وإذا كان عنترة العبسى العربي قد تفوق في الفروسية فقد جعلته السيرة يتفوق على الشعراء. وما أروع الحيلة التي اصطنعها تصويراً لإمارته على شعراء العربية، لقد استغلت ما أثر عن أبي الفـوارس باعتبـاره واحداً من فحول الشعراء في الجاهلية ومن أصحاب المعلقات، ولذلك ألحت الـسيرة علـى فـضيلة الـشعر إلحاحها على فضيلة الفروسية، وجمعت بين أصحاب المعلقات بطريقة فنية لا تقيم وزنـاً للروايـة الأدبيـة المحققة، وعقدت مباراة شعرية لا تختلف عن مبارزة الفرسان، وحكمت آخر الأمر بالتفوق والسبق لمعلقـة عنترة... وسايرت منهجها حين جعلته من أعلام الناس بفقه اللغة العربية وبأيام العرب وأنسابهم، ومـن ثـم أصبحت لسيرة عنترة وظيفة تعليمية إلى جانب وظيفتها الملحمية. ولا يغفل القصاص الشعبي عن العظة التي لابد أن تستخلص من كل موقف ومن كل شخصية. والسيرة بهذه المثابة كتاب جامع للمعارف وللعظات مـع الحرص على طابعها الملحمى وبنائها الفنى.

وتكتنف السيرة عروق أسطورية لا تثمرها المبالغة في الخيال فحسب، وإنما تجيئها من شوائب قديمـة ومن تصورات شعبية، وهذه العروق الأسطورية تباين المبالغة في القدرة عند الأبطال والـشخوص مبالغـة تتجاوز بها حدود الممكن والمعقول ذلك لأنها مجموعة من الأفكار والتخيلات من التفسيرات غير المعقولـة لبعض الأعمال والظواهر، وهناك شواهد كثيرة عن طول الحياة بحيث يعمر بعـض النـاس القـرون ذوات العدد، وعن الفأل والطيرة والحسد وعن أرض العفاريت وكهف الـساحرات اللاتـى يـأتين فيـه بالعجـب العجاب... وليس من شك في أن تلك الرواسب الأسطورية سمة من سمات الأدب الشعبي وهى تضاف إلـى ما في سيرة عنترة وغيرها من القدرة على قتل الأسود ومن النسوة المسترجلات، ومـن التـشويق بتتـابع الأحداث لا بإخفاء النتيجة التي يفصح عنها التنبؤ بوساطة النجوم أو الرمال أو الأحلام، وما إلى هذا السبيل. وكما بدأت السيرة تمهد لظهور الإسلام بقصة إبراهيم عليه السلام فقد ختمت بدخول بنى عبس فـي زمـرة المسلمين.

وهكذا انتهت الملحمة الشعبية التي تعد من روائع الملاحم العالمية وإن كان الراوى الشعبي يختم كلامه دائماً باعتبارها سجل معارف وأخبار ومواعظ فيقول: "... قال الراوى لهذه الروايات والفنون فقد رأيت مـن سير الأولين وأخبار المتقدمين وما نقل عن القرون الماضية ما فيه عبر لأولي الألباب وحكمة بالغـة يـدرى المتدبر بها عين الصواب".